سمات الكلام البليغ ومراتبه

بقلم

** الدكتور : عبد الحميد مصطفى ابراهيم
المدرس بقسم البلاغة والنقد

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أفصح الخلق لسانا وأوضحهم بيانا ... أما بعد .

فان الكلام من أجل نعم الله على الانسان ، به يفصح الانسان عن كوامن عقله وخواطر قلبه ومنفوت صدره ، وهو فصل ما بين الانسان وغيره من أصناف الحيوان . قال تعالى : « الرحمن علم القرآن . خلق الانسان علمه البيان » .

وقال بعض نقاد المعانى وجهابذة الالفاظ : المعانى القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم مستورة خفية ومحجوبة مكنونة لا تعرف الا بذكرهم لها واخبارهم عنها واستعمالهم اياها (١) وقديما قالوا :

ان الكلام لفى الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وقد تفاخر العرب بطلاقة اللسان وجمال البيان وحسن الكلام ومن أثرالهم « ليس لعيى مروءة ، ولا لمنقوص البيان بهاء واضح بيافوخه أعنان السماء » .

وقد طلب نبى الله موسى عليه السلام من ربه أن يحل عقدة لسانه ليكون حسن الكلام وأضح البيان . قال تعالى على لسانه « رب اشرح لى صدرى ويسرلى أمرى واحلل عقدة من لسانى

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٧٥ تحقيق عبد السلام هارون

يفقهوا قولى » واستجاب الله تعالى له « قال قد أوتيت سـؤلك يا موسي » (١) ٣٦ سورة طه ٠

ولهذا كانت مراتب الكلام متفاوتة ودرجاته متباينة ٠ والحكم ببلاغة كلام على آخر كان وما زال مثار خلاف بين النقاد ٠٠٠ وقد يقول قائل : ان الحكم للكلام بالبلاغة ومعرفة منزلته منها أمر سهل حيث ان العلماء قد وضعوا لنا مقاييس البلاغة وما علينا اذا أردنا تأليف كلام بليغ الا أن ندرس تلك المقاييس و نلم بها الماما جيدا ٠ كما واننا اذا أردنا الحكم للكلام أو عليه نظرنا الى ما يشتمل عليه من تلك المقاييس ثم نضعه في المرتبة التى تليـق به أو يليق بها ٠٠٠ ولكنى أرى أن الامر ليس بهـذه السهولة بل أكاد أجزم بأن ذلك الامر يحتاج الى نظر وفكر وجهد كثير ٠٠ ذاك لان الخصائص البـلاغية أكثـر من أن تحصي ولو فرضنا أن انسانا استطاع أن يلم بتلك الخصائص والمقاييس٠ فهل هو قادر على وضع كل منها في المكان المناسب لها ومعـرفة الموضع اللائق بها ؟ ولو افترضنا أنه قادر على ذلك أيضا فهـل هو قادر على وضع كل منها في المكان المناسب لها ومعرفة الموضع اللائق بها ؟ ولو افترضنا أنه قادر على ذلك أيضا فهل هو قادر على معرفة نفسيات المخاطبين واتجاهاتهم وميولهم وما يناسب أذواقهم المختلفـة واهتماماتهم المتنـوعة وما يؤثر فيهم وما لا يؤثر ، وما يشد انتباههم اليه وما يصرفهم عنه ؟ أعتقد أن الوصول الى الغاية في هذه الامور شيء فـوق طـاقة البشر خصوصا وأن النظرة الى مقاييس الـكلام البليغ قد اختلفت باختلاف علماء هذا الفن واتجاه ثقافاتهم فبعضهم يرى البلاغة في الايجاز وبعضهم يراها في حسن المعانى وآخرون يرونهـا في اختيار الالفاظ وغيرهم يراها في معرفة الفصل والوصل ٠٠ فهـا هو صحار بن عياش العبدى يرى أن بلاغة الكلام في ايجازه ٠

---

(١) المصدر السابق ٠

فقد سأله معاوية « ما تعدون البلاغة فيكم فقال : الايجاز ، قال معاوية : وما الايجاز ؟ فقال صحار : أن تجيب فلا تبطىء وتقول فلا تخطىء » وهنا نظر معاوية وكأنه رأى أن كلام صحار بعيد عن الايجاز فراجعه بقوله : أو كذلك تقول يا صحار ؟ فتنبه صحار الى خطئه وقال : أقلنى يا أمير المؤمنين : ألا تبطىء ولا تخطىء (١) فالاول متعلق بالاجابة والثانى متعلق بالقول ولذا كان ذكرهما خروجا على الايجاز الذى هو مفهوم البلاغة عندهم ٠٠ أما عمرو بن عبيد فيرى أن الكلام البليغ : هو ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك (٢) فكأنه يرى أن البلاغة تكون في الوعظ والارشاد والكلام الدال على الخير والفضائل فقط ٠٠ والبلاغة عند كلثوم بن عمرو العتابى هى : أن يفهم السامع معنى الناطق ٠ حيث يقول : من أفهمك حاجته من غير اعانة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ (٣) ويشعر الجاحظ بقصور في كلام العتابى فيحاول ايضاح مراده بقوله : « والعتابى حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة ٠٠ وانما عنى افهامك العرب حاجتك على مجارى كلام العرب الفصحاء» (٤)

كما ينبرى أبو هلال العسكرى للرد على العتابى فيقول : « ولو حملنا كلام العتابى على ظاهره للزم أن يكون كل الناس بلغاء حتى الاطفال لان كل أحد لا يعدم أن يدل على غرضه بعجمته أو لكنته أو ايمائه أو اشارته ٠٠٠ ويصحح أبو هلال كلام العتابى بقوله : « وانما عنى العتابى أن كل من أفهمك

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٩٦
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١١٤
(٣) المرجع السابق ج ١ ١١٣
(٤) المرجع السابق ص ١٦٢

حاجته بالالفاظ الحسنة والعبارة النيرة فهو بليغ » (١)

ويرى أبوهلال أن الكلام يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته وتخير لفظه واصابة معناه، وجودة مطالعه ، ولين مقاطعه واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه ، وحسن رصفه وتأليفه ، وكمال صوغه وتركيبه » (٢)

وفي رأيى أن ما قاله أبو هلال أحسن وصف للكلام البليغ واذا استوفي الكلام تلك الصفات ارتقى الى المنزلة العليا وكان بالقبول حقيقا وبالتحفظ خليقا .

وقد استقر البلاغيون أخيرا على أن الكلام البليغ هو الكلام الموافق لمقتضي الحال والمقام مع اشتراط أن تكون كلماته فصيحة. حيث يعرفون البلاغة بأنها : مطابقة الكلام لمقتضي الحال مع فصاحته (٣) .. ومعنى فصاحة الكلام أن تكون ألفاظه واضحة بينة فلا تكون غريبة وحشية ولا ساقطة سوقية . ومعنى المطابقة لمقتضي الحال أن يراعى المتكلم أقدار السامعين وأن يضع كل لفظة في موضعها المناسب لها الالصق بها .

يقول بشر بن المعتمر في صحيفته : وينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ويوازن بينها وبين أقدار السامعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات (٤)

كما يعبر ابن المقفع عن معنى المطابقة في قوله « ان المتكلم يجب أن يعطى كل مقام حقه عند من يعرفون حقوق الكلام وهم

---

(١) الصناعتين ص ١٢
(٢) الصناعتين ص ٥٢
(٣) المطول ص ٢٥
(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٩

البلغاء ، وأما الجهلة فلا اعتبار لهم » (١) .

وهذا يعنى أن المطابقة لمقتضي الحال لا تكون الا مع فصاحة الكلام وموافقته للاساليب العربية الصحيحة حتى لا يقول أحد ان المتكلم يمكن أن يتحدث بالعامية وسط قوم لا يفهمون غيرها. وقد عبر الجاحظ عن فكرة المطابقة لمقتضي الحال في قوله « وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضا في صناعة الكلام مع خاص أهل الكلام فان ذلك أفهم عندى وأخف لمؤنتهم على وقبيح بالمتكلم أن يفتقر الى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام أو الجار أو في مخاطبة أهله أو في حديثه اذا حدث أو خبره اذا أخبر ، وكذلك من الخطأ ن يجلب ألفاظ الاعراب أو ألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل » .

كما يذكر الجاحظ أن الناس في طبقات وأن كلامهم في طبقات وأن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس (٢)

ومن كل ما سبق نستطيع أن نخرج بمفهوم عام للبلاغة فنقول : انها تأدية المعنى بألفاظ فصيحة ونظم حسن يؤثر في النفوس ويتناسب مع المقام وأحوال السامعين .. وعلى المتكلم البليغ أن يراعى كل ذلك في كلامه . فعليه اذن أن يعرف الخصائص والمقتضيات التى يتطلبها كل مقام كما عليه أن يتخير من الالفاظ ما يتلاءم ويتناسب مع المعنى الذى يريده والغرض الذى يقصده فيعرف مثلا موضع التعريف من موضع التنكير ، وموضع الذكر من موضع الحذف ، وموضع التأكيد من موضع الاطلاق .

« وأن ينظر في الخبر الى الوجوه التى يراها في مثل زيد منطلق ، وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق

---

(١) أنظر المرجع السابق ج ١ ص ١١٦
(٢) أنظر المرجع السابق ج ١ ص ١٤٤

زيد • فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجىء به حيث ما ينبغى له •• كما ينظر الى الحروف التى تشترك في معنى وتنفرد كل منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه • نحو أن يجىء « بما » في نفى الحال ، « وبلن » في نفى الاستقبال « وبان » فيما يترجح بين أن يكون وألا يكون ، « وباذا » فيما علم أنه كائن ••• و ينظر في الجمل التى تسرد فيعرف موضع الواو من موضع الفاء • والفاء من ثم ، كما يتصرف في التقديم والتأخير والاضمار والاظهار والتكرار فيصيب بكل من ذلك مكانه وموضعه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغى له » (١) •

فاذا نظر مثلا الى قوله تعالى : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » ٩٦ سورة البقرة ••• عرف السر في تنكير كلمة «حياة» وأنه لم يقل « على الحياة » لان للتنكير هنا كما يقول الامام عبد القاهر حسنا وروعة ولطف موقع لا يقادر قدره • والسبب في ذلك أن المعنى على الازدياد من الحياة لا الحياة من أصلها ، وذلك لا يحرص عليه الا الحى ، فأما العادم للحياة فلا يصح منه الحرص على الحياة ولا على غيرها ، واذا كان كذلك صار كأنه قيل : ولتجدنهم أحرص الناس ولو عاشوا ما عاشوا على أن يزدادوا الى حياتهم في ماضي الوقت ورأهنه حياة في الذى يستقبل، فكما أنك لا تقول ههنا : أن يزدادوا الى حياتهم الحياة بالتعريف، وانما تقول : حياة • لان التعريف يصلح حيث تراد الحياة على الاطلاق كقولنا : كل أحد يحب الحياة ويكره الموت ، كذلك الحكم في الآية • كما وأنه لا يصح هنا أن نقول : كل أحد يحب حياة ويكره موتا » (٢)

---

(١) أنظر دلائل الاعجاز ص ٦٧ الطبعة السادسة تحقيق رشيد رضا •

(٢) أنظر دلائل الاعجاز ص ١٩٠

واذا تأمل في قوله تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لهـا وتوكل على الله » عرف السر في ايثار « ان » على « اذا » في هذا المرطن على الرغم من اشتراكهما في أصل المعنى «وهو الشرط» الا أنه لما كان ميل الكفار الى السلام أمرا مشكوكا فيه وغير مقطوع به بل الارجح هو ميلهم الى الحرب والعدوان جيء «بأن« لان الغالب فيها دخولها على الشرط المشكوك فيه والغالب في « اذا » أن تدخل المتيقن المقطوع به ٠٠ وعلى ضوء ما سبق يمكن القول بأن بلاغة الكلام تتوقف أساسا على أمرين : الاول فصاحة ألفاظه ، والثانى حسن نظمه وسبكه وذلك بمراعاة الخصائص التى بها يطابق مقتضي الحال ٠

وعلى الرغم من صحة ذلك في الغالب الاعم فان الحكم على الكلام أوله يخضع في كثير من الاحيان الى الذوق العربى السليم وهو ذوق أهل العلم والمعرفة القادرين على تمييز جيد الكلام من رديئه ٠ ذاك لان القواعد البلاغية ليست أمرا مطردا يحكم به في جميع الاحوال والمقامات بل كثيرا ما نجد الكلام في القمة من البلاغة رغم مخالفته لبعض المقاييس التى اشترطها البلاغيون ٠٠٠

من ذلك مثلا أن البلاغيين يشترطون لفصاحة الكلام أن يسلم من كثرة التكرار لانه يؤدى الى التنافر والثقل ٠ ولهذا حكموا برداءة قول أبى تمام :

فالمجد لا يرضي بأن ترضي بأن
يرض المؤمل منك الا بالرضا

فقد روى أن اسحق بن ابراهيم الموصلى قال لابى تمام لما

سمع هذا البيت : « لقد شققت على نفسك يا أبا تمام والشعر أسهلٌ من هذا » (١) ٠

كما عاب البلاغيون على مسلم بن الوليد قوله :

سلت وسلت ثم سـلّ سليلها
فأتى سليلٌ سليلها مسـلولا (٢)

قالّ ابن سان الخفاجى معقبا على هذا البيت « ولولا أن هذا البيت مروى لمسلم وموجود في ديوانه لكنت أقطع على أن قائله أبعد الناس ذهنا وأقلهم فهما وممن لا يعد في عقلاء العامة فضلا عن عقلاء الخاصة ٠ لكنى اخالّ خطرة من الوسواس عرضت له وقت نظم هذا البيت فليته لما عاد الى صحة مزاجه وسلامة طباعه جحده فلم يعترف به ونفاه فلم ينسب اليه » (٣) ٠٠٠ الا أنك اذا تأملت التكرار في قوله تعالى : « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين » وجدته حسنا رائعا وسمة من سمات الاعجاز البلاغى للقرآن ٠ وقد ظن من لا علم له أن في هذه الآيات تكريرا لا فائدة فيه فأثبت على نفسه الجهل وعدم الفهم ، ولو نظر وتأمل لعرفأنهذا التكرار اختصار واعجاز ، لان الله تعالى نفى عن نبيه صلى الله عليه وسلم عبادة الاصنام في الماضي والحاضر والمستقبل ، ونفى عن الكفار المذكورين عبادة الله في الازمنة الثلاثة أيضا ٠ فقوله : « لا أعبد ما تعبدون » أريد به العبادة فيما يستقبل لان « لا » لا تدخل الا على مضارع في معنى الاستقبال كما أن « ما » لا تدخل الا على

---

(١) أنظر سر الفصاحة ص ٨٧ تحقيق الشيخ عبد المتعال الصعيدى ٠

(٢) ضمير سلت للخمر يقول : أنها رققت بطول القدم ثم رقق رقيقها فأتى رقيق رقيقها مرققا ٠

(٣) سر الفصاحة ص ٩٤

مضارع في معنى الحال ، والمعنى لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة آلهتكم ، « ولا أنتم عابدون ما أعبد » أى ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة الهى ، « ولا أنا عابد ما عبدتم » أى وما كنت قط عابدا فيما مضي ما عبدتم فيه ، يعنى لم يعهد منى عبادة صنم في الجاهلية في وقت ما فكيف يرجى ذلك منى في الاسلام ، « ولا أنتم عابدون ما أعبد » أى وماعبدتم في وقت « ما » ما أنا على عبادته الآن .

فالتكرير اذن لاختلاف المعنى ولتأكيد حقيقة الافتراق الذى لا التقاء فيه والاختلاف الذى لا تشابه فيه والانفصال الذى لا اتصال فيه ، والتمييز الذى لا اختلاط فيه وهو مكمن من مكامن البلاغة وسر من أسرار الاعجاز (١) .

وبمثل هذا التفسير والتعليل ينظر الى التكرير في قوله تعالى : « قل أعوذ برب ا لفلق من شر ما خلق ، ومن شر غاسق اذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد اذا حسد » انما كرر قوله « من شر » أربع مرات لتغاير نوع الشر الذى يصدر عن كل منهم فلكل واحد شر يخالف نوع الشر الذى يجىء من الآخر وفي التكرير زيادة تنبيه وتحذير للمؤمن حتى يكون على حذر كامل ويقظة تامة لكل أنواع الشر ما ظهر منها وما خفى وسلاحه في ذلك هو اللجوء الى الله والعياذ بكنفه واللياذ بحماه ..

كما يشترط بعض البلاغيين لفصاحة الكلام خلوه من الاضافات المتتابعة ، ولهذا عابوا قول ابن بابك :

حمامة جرعى حومة الجندل أسجعى
فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

---

(١) أنظر « في ظلال القرآن » المجلد السادس ص ٣٩٩٢ - دار الشروق ، وتفسير الكشاف المجلد الرابع ص ٢٩٢

وهذا الشرط أيضا ليس على اطلاقه بدليل تتابع الاضافات في بعض آيات القرآن وهو قمة الفصاحة والبلاغة • قال تعالى : « مثل دأب قوم نوح » وقال « ذكر رحمة ربك » وهـــذا يؤكد ما قلناه من أن المقاييس التى وضعت لبلاغة الكلام ليست قوانين ثابتة في جميع الاحوال • بل ان للذوق السليم دورا بارزا في الحكم للكلام أو عليه ••• كما أن الغرض المـــراد من الكلام كثـــيرا ما يقتضي التجاوز عن بعض تلك المقاييس •

ولما كانت وظيفة البلاغة الاولى هى الاقناع من طـــريق التأثير والامتاع من طريق التشويق كان اتجاهها الى تحـــريك النفس أكثر وعنايتها بتجويد الاسلوب أشـد ، وهى تخاطب العقل وتخاطب القلب ، وقد تخاطب العقل والقلب معا لانها كما سبق مطابقة الكلام الفصيح لما يقتضيه الحال والمقام • والاحوال التى تعرض للانسان اما أن تكون راجعة الى انفعالات الوجدان وعواطف القلب واما الى خواطر العقل واتجاهاته •• والبليغ من يراعى في كلامه انفعالات القلب واتجاهات العقل ويأتى بكلامه مطابقا لما تفرضه عليه هذه الاحوال •

فاذا كان المخاطب جاهلا بالموضوع الذى سيعرض عليـــه فليس على المتكلم البليغ الا أن يعرض القضية بوضـــوح وبأسلوب بين ، واذا كان المخاطب على ذكر من الامر ولكنه يريد التحقق منه كان على المتكلم أن يضـــمن كلامه بعض الادلة وينسقها التنسيق المطلوب حتى يتحقق للمخاطب مايصبو اليه، أما اذا كان المخاطب يعرف الامر ولكنه ينكره أو نزل منزلة ما شأنه ذلك فعلى المتكلم أن يسوق الكثير من الادلة ويستخدم

---

(١) أنظر المطول ص ٢٧

وسائل الاقناع والتأثير وما يتاح له ويحتاج اليه من وسائل التوكيد ٠

واذا كانت الحال هى الامر الداعى للمتكلم الى أن يعتبر في كلامه بعض الخصوصيات الزائدة على أصل المراد ٠ فان هذا الامر الداعى قد يكون في نفس المتكلم لا في نفس المخاطب ٠ ٠ كما اذا قصد المتكلم التأثير في السامعين وجذبهم الى ما يريده كخطباء الاحزاب ، وأصحاب الميول السياسية والاجتماعية المختلفة فانه والحالة هذه يتأنق في اختيار ألفاظه ويتفنن في تجميل أسلوبه ويستخدم الوسائل التى تـ جذب الاذهان ، وتستميل القلوب ، وتقنع العقول ٠ وبذلك تتضح لنا العلاقة الوثيقة بين البلاغة وعلم النفس ٠ فالبليغ يخاطب أشخاصا ويكتب لاشخاص وهو لا يستطيع أن يطابق المقام ويحقق البلاغة الا اذا كان عليما بأسرار النفوس وأهواء القلوب خبيرا بالعواطف والغرائز والنزعات الانسانية المختلفة ٠

وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول انما يكون بمطابقته للحال والمقام وانحطاطه بعدم مطابقته لذلك (١) ٠

كما يرتفع شأن الكلام بالدقة في اختيار الالفاظ و حسن البدء وجمال الختام ولطف الخروج من غرض الى أخر ولا يزال الكلام يرتفع بالخصائص البلاغية حتى يصل الى حد الاعجاز وتلك هى المرتبة العليا التى لا يطمع أديب في الوصول اليها لانها مقصورة على كلام الله عز وجل ٠

ويلى القرآن في مراتب الكلام البليغ كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ قال عليه الصلاة والسلام « أنا أفصح العرب بيد

---

(١) أنظر المطول ص ٢٧

أنى من قريش » . وقال : « أوتيت جوامع الكلم » .

ويلى ذلك كلام أدباء العرب وبلغائهم المشهورين بالخطابة والكتابة والشعر ..... أما الطرف الاسفل للبلاغة فهو كما قال صاحب التلخيص « ما اذا غير الكلام عنه الى ما دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات وان كان صحيح الاعراب، وهو الكلام الذى يصدر عن قائله كيفما اتفق من غير مراعاة للطائف والخواص الزائدة على أصل المراد » (١) .

وأرى لزاما على الآن أن أعرض بعض الامثلة لمراتب الكلام المختلفة لنقف على التفاوت الواضـــح بين تلك المراتب وأبدأ بأعلاها منزلة .

تأمل قول الله تعالى « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ، وأشرقت الارض بنور ربها ووضـــع الكتاب ، وجىء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون » (٢) تجد الآيتين تشتملان على كثير من الخصائص ووجوه من الحسن يعجز أبلغ البشر عن الاتيان بمثلها أو بما يقرب منها ..

فهذه الايات تصوير لمشهد رهيب من مشاهد يوم القيامة يبدأ بالنفخة الاولى وينتهى باحقاق الحق ونشر العدل .. وأول ما يطالعنا من الخصائص البلاغية في هاتين الايتين ما تراه من التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي في قوله تعالى : « ونفخ في الصور » وذلك للدلالة على تحقق الوقوع وكأنه أمر قد حـــدث بالفعل ، والنفخ في الصور هو الامر الذى يصدر من الله تعالى

---

(١) أنظر المطول ص ٣١

(٢) أنظر الآيتان ٦٨ ، ٦٩ من سورة الزمر .

الى من يشاء من عالم خلقه فيستجيب من صدر له الامر بدن تردد أو تمهل فشبه هذا الامر بالنفخ في البوق الذى يحدث عند اعلان الحرب أو عند وقوع غارة وفي هذا ما يدل على هول الموقف وشدته ، وقد حذف فاعل النفخ ايجازا واختصارا لتعينه وعدم اللبس فيه ... وفي قوله « فصعق من في السموات ومن في الارض » نلاحظ أنه اختار الفعل « صعق » بدلا من الفعل «مات» مثلا مما يوحى بشدة الامر وعنف المفاجأة فهو صاعقة تصيب الكائن الحى فتشل حركته وتهد كيانه .. وعطف الفعل بالفاء يدل على حدوث الموت بعد النفخ بغير مهلة ، وهكذا تتوالى الخصائص البلاغية فنراه يعطف بعد ذلك بثم في قوله « ثم نفخ فيه أخرى » للدلالة على أن هناك فسحة من الوقت ومهلة بين النفخة الاولى والنفخة الثانية ، وقد حذف الموصوف ايجازا لدلالة الصفة عليه والتقدير « نفخة أخرى » ودل بذلك على أن الاولى نفخة واحدة أيضا .

فاذا جئت الى قوله « فاذا هم قيام ينظرون » طالعتك «اذا» التى للمفاجأة وفي هذا ايحاء بهول ذلك المشهد وبأنه فاجأ الخلق على غير ترقب وانتظار فقاموا يقلبون أبصارهم في الجهات المختلفة كما يفعل المبهوت اذا فاجأه خطب ..

وتبدأ الآية الثانية بقوله تعالى « وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب » فنجد الاشراق والنور وفيهما ايحاء بالطمأنينة للمؤمنين الذين فزعوا أول الامر « لانهم سيرون عدل ربهم . ذلك العدل الواضح الظاهر الذى لا لبس فيه ، ومن هنا كانت استعارة النور للعدل استعارة واقعة في موقعها اللائق بها ، فالعدل نور ، والظلم ظلمات ، وفي اضافة اسمه عز وجل الى ضمير الارض تشريف لها ، ولانه يزينها حيث ينشر فيها

عدله وينصب فيها موازين قسطه ، ولا يزين الارض ولا ينيرها غير العدل ٠

وقد حذف الفاعل في « ووضع الكتاب ، وجىء بالنبيين ٠٠٠ وقضي بينهم ٠٠٠ » لما سبق من أنه متعين لا لبس فيه فكان الحذف ايجازا واختصارا ، وهو حذف أفصح من الذكر وأزيد للافادة ٠٠

واذا أردت أن تعرف روعة البلاغة وعظمتها فتأمل ذلك الختم الرائع للاية بقوله تعالى « وهم لا يظلمون » تجد أ نها قد ختمت بما يناسب أولها ، فقد بدأت باثبات العدل وختمت بنفى الظلم، وقد جىء بالفعل مبنيا على الاسم ولم يقل « ولا يظلمون » لافادة تأكيد الخبر وتحقيقه ولان المعنى لا يستقيم الا على ذلك كما يقول الامام عبد القاهر « فلا يخفى على من له ذوق أنه لو جىء في ذلك بالفعل غير مبنى على الاسم فقيل : وجىء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق ولا يظلمون » لوجد اللفظ قد نبأ عن المعنى ، والمعنى قد زال عن صورته والحال التى ينبغى أن يكون عليها » (١) ٠

هذا وفي القرآن الكثير من عجائب البلاغة التى لا يحصرها حد ولا يحيط بها وصف ، ففيه السلاسة والسهولة وتخير اللفظ واصابة المعنى وجودة المطلع ، ولين المقطع واستواء التقاسيم وتعادل الاطراف وحسن الرصف والتأليف وكمال الصوغ والتركيب ولو تأملت أقصر سورة من سور القرآن وهى سورة « الكوثر » لوجدتها تشتمل على ذلك وعلى ما هو أكثر من ذلك من الخصائص البلاغية ٠٠٠ فهى تبدأ بقوله تعالى « انا أعطيناك الكوثر » وفيها من الدلالة على عظم العطاء ما فيه حيث أسند الى الحق جل وعلا ، وما بالك بعطاء يتولاه الخالق العظيم الذى هو مصدر

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٠٠ ٠

كل النعم بنفسه ٠٠ و « الكوثر » فوعلٌ ، من الكثرة ويدل على الكثرة الكثيرة غير المحدودة وفي تصدير الكلام « بان » دلالة على تأكيد هذا الامر ، وفي بناء الفعلٌ على الاسم دلالة على التخصيص، واستخدام صيغة الماضي « أعطيناك » يدلٌ على تحقق الوقوع عاجلا وآجلا ، وحذف موصوف الكوثر فلم يقل : النهر الكوثر أو الخير الكوثر لما في ذلك من ايهام الشيوع والشمول وهو اشارة الى تناوله لكل ما هو خير وبلوغه الى ما لانهاية أوحد (١) ٠

« هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » وهذا العطاء المبالغ فيه دليل على المقام العظيم لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عند ربه ٠ واذا سألت عما أعطى النبى من الخير فنقولٌ أنه أعطى من الخير ما لا يحصي ، أعطى القرآن ،وهوخاتم النبيين وأفضل الرسل ، والذى رأى من آيات ربه الكبرى الى أخر تلك الفضائل التى لا تحصي ٠٠ هذا العطاء المؤكد الفائض الكثرة ماذا يستحق ؟ انه يستحق شكر المعطى وعبادته ولذا وجه الرسول صلى الله عليه وسلم الى شكر تلك النعمة بالاخلاص في العبادة « فصل لربك وانحر » أى صل الصلاة لله وحدهواجعلها خالصة له سبحانه ٠

والصلاة أفضل القربات الى الله ، وقد جمعت الآية بين عبادتين احداهما بدنية وهى الصلاة والاخرى مالية وهى نحر الذبائح واطعام الفقراء ٠ وجاء « بالفاء » التى تفيد التعقيب والمسارعة الى أداء العبادة وهو ما يليق بحق هذا المنعم ٠ وفي الآية التفات من المضمر الى المظهر في قوله « فصل لربك » ولو

---

(١) أنظر الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم الجوزية ـ دار الكتب العلمية ٠

جرى على السياق لقال « فصل لنا » وفي اظهار لفظ « الرب » تعظيم لشأنه واثبات لعزته وسلطانه وفيه أيضا تعليم للخلق بأن تكون العبادة خالصة لوجه الله لانه المربى والراعى والمنعم ولا يرجى الخير الا منه ٠

« ان شانئك هو الابتر هذه الآية تؤكد ما سبقها من أن محمدا ليس أبتر بل هو صاحب الكوثر وله من الخير الكثير كما تثبت بطريق التأكيد أن الابتر انما هو شانئه وكارهه » (١) ٠ ولم يسم هذا الشانىء ليشمل كل من كان على شاكلته ٠ وعرف خبر « ان » ليفيد قصر تلك الصفة عليه و اختصاصه بها ٠ ولما كانت هذه الآية بالتأكيد والتعليل لما قبلها فصلت على طريق الاستئناف وحسن موقع « ان » في صدر الاية لانها كما يقول الامام عبد القاهر تريك الكلام مستأنفا غير مستأنف مقطوعا موصولا معا ٠

فاذا تركت ذلك وبحثت عن المناسبة التى تربط هذه السورة بما قبلها وجدت بينهما رابطا وثيقا وصلة قوية فالسورة التى قبلها وهى سورة « الماعون » وصفت المكذب بالدين بالبخل وترك الصلاة والرياء ومنع الزكاة فقابل في هذه السورة البخل بأعطيناك الكوثر ، والسهو عن الصلاة بقوله « فصل » والرياء بقوله « لربك » ومنع الزكاة بقوله «وانحر (٢)

تلك هى بعض الخصائص البلاغية التى تشتمل عليها هذه السورة وهى أقصر سور القرآن فاذا أضفنا الى ذلك ما تراه من فضيلة السجع غير المتكلف بين الآيات عرفت لم كان القرآن في أعلى درجات البلاغة ٠

---

(١) انظر في ظلال القران المجلد السادس ٣٩٨٩ دار الشروق
(٢) البحر المحيط المجلد الثامن ٥١٩ دار الفكر ٠

أما كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فهو وان وصل الى درجة من الفصاحة والبلاغة تفوق أى كلام آخر لبلغاء العـــرب وخطبائهم الا أنه مما يطمع فيه كما وأنه لا يتصف بصـــفة الاعجاز ، ولذا كان في المرتبة الثانية .

ولنتأمل معا هذا الحديث الشريف لنقف على بعض أسرار البلاغة النبوية .. قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان . أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سـواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » .

فأول ما يطالعنا من أسرار البلاغة في هـــذا الحديث تلك الاستعارة الجميلة في قوله « حلاوة الايمان » حيث شـــبه رغبة المؤمن في الايمان واستعذابه له بشيء حلو لذيذ فأضافه اليـه ، والحلاوة هى أظهر اللذائذ المحسوسة وفي ذلك ترغيب للمسلم وحث له على الجد والمثابرة في تحصيل تلك الصفات كى يشـعر بتلك اللذة التى لا يمل منها الانسان لانها لذة معنوية تبقى بقاء تمسك المرء بتلك الصفات بخلاف لذة الحلوى المحسوسة التى يملها الانسان اذا أكثر منها وربما انعدمت لذتها نتيجة لذلك .

فاذا جئت الى الصفة الاولى وهى قوله عليه الصلاة والسلام « أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » وجدت تلك الجملة على ايجازها جامعة لكل الفضائل لان معناها أن يرضي الانسان بكل ما شرعه الله وبكل ما أمر به رسوله فينفذ أوامر الله ويتخلق بأخلاق رسول الاسلام في الجود والايثار والحلم والتواضع والصدق والامانة فمحبة العبد لله اذن تحصل بفعل طاعته وترك معصيته وكذلك الرسول ... وقال مما سواهما ، و لم يقل ممن سـواهما ليعم من يعقل ومن لا يعقل ..

ثم انتقل الى الصفة الثانية وهى قوله « وأن يحب المرء

لا يحبه الا لله » وحاول أن تأتى بكلام يعبر عن الاخلاص فيالحب والصدق فيه أفضل من هذا التعبير • فهـــو ينزه الحب عن كل غرض دنيوى مادى ، كما يبعده عن التأثر بالمنفعة الفانيةالتى لا تدوم بحال من الاحوال ، وينأى به عن الشبهات والاغراض ويربطه بالشيء الازلى الباقى دائمـــا وأبدا فيكتب له الدوام والاستمرار فتقوى الصلة ويزداد الترابط بين المؤمنين ••

وان أردت أن تعرف بلاغة التعبير في الصـــفة الثالة وهى قوله « وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » فانظر الى الحرف « في » من قوله « في الكفر » وحاول أن تعرف السر في ايثاره على الحـــــرف « الى » تجد أنه يتضمن معنى الاستقرار وكأنه قال يستقر فيه •• ثم ذلك التشبيه القوى في تأثيره حيث شبه العود الى الكفر بالقذف في النار التى لا تأتى على شيء الا أهلكته ، وإدراك الانسان للهيب النار يجعله يبتعد عن الاقتراب من تلك الجريمة النكراء فضلا عن الوقوع فيها ••• وكانت له صلى الله عليه وسلم قدرة على الايجازالبليغ لا تبارى ولا تجارى ، ويظهر ذلك واضحا في قوله عليه الصلاة والســـلام لسفيان بن عبد الله الثقفى حين سأله أن يقول له في الاســـلام قولا لا يسأل عنه أحدا بعده • فقال له «قل آمنتبالله ثماستقم» فقد جمع صلى الله عليه وسلم في هذه الالفاظ القليلة الكثير من المعانى والمبادىء التى أمر بها الاسلام • فالايمان بالله يعنى الاعتقاد بوجوده اعتقادا لا يشوبه شك ويقتضي ذلك الايمان بملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره • • والاستقامة تعنى تنفيذ كل ما أمر به الحق سبحانه وتعالى من صلاة وصيام وزكاة وحج ، واجتناب كل ما نهىعنده منالخبائث والرذائل والمنكرات ، وقد أوجز الرسول هذه المعانى الكثيرة في

تلك الالفاظ القليلة ، وربما يتوهم متوهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد يسر أمر الاسلام على السائل وأن ما قالهلايحتاج الى جهد ولكنه اذا نظر وفهم تبين له خطأ هذا الوهم لان تنفيذ ما أمر به الرسول في هذين اللفظين يعنى أن ينضبط المسلم انضباطا كاملا مع ربه ومع أهله ومع مجتمعه وهو أمر يحتاج الى عمل وجهد ومغالبة نفس وبه يرتقى الانسان الى منزلة عليا عند ربه قال تعالى » ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » .

وهكذا تكون الدقة في اختيار الالفاظ المناسبةالمعنى والمؤدية للغرض واستخدام الالوان البلاغية استخداما يرقى بالاسلوب ويرفع من قدر النظم ويعمق الفكرة حتى يصدق قوله صلى الله عليه وسلم « أنا أفصح العرب » وقوله « أوتيت جوامع الكلم » أى جمع المعانى الكثيرة في الالفاظ القليلة ، وقوله لعلى رضي الله عنه وقد سأل من أدبك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

ومن كلامه الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الانصار « أما والله ما علمتكم الا لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع » وقوله « لا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له » ومن كلامه الذى لم يسبقه اليه عربى ولا شاركه فيه أعجمى مما صار مستعملا ومثلا سائرا قوله عليه الصلاة والسلام « يا خيل الله اركبى » وقوله « مات حتف أنفه » وقوله « الآن حمى الوطيس » وقوله « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » وقوله « هدنة على دخن » .

وهذا النوع من الكلام «الجامع للمعنى الكثير باللفظالقليل» قليل في اللغة والبليغ التام من تجد له كلمة أو كلمات قليلة من

هذا النوع ولم يرد بكثرة لغير الرسول صلوات الله وسلامه عليه وقد صارت هذه الكلمات أمثالا سائرة لايجازها ودقتها في الدلالة على المعنى بالاضافة الى كونها مجازات واستعارات على درجة عالية من البلاغة » (١) ٠

والبلغاء والادباء في مراتب متفاوتة بعد هاتين المرتبتين ٠٠ تتفاوت بلاغة كل منهم بقدر توفيقه في اختيـــار الالفاظ وحسن النظم وجودة السبكوقدرته علىمراعاة الخصائص التىيتطلبها كل مقـام ٠

وللوقوف على ذلك نعرض بعض النماذج لنرى ما قد يكون بينها من فرق شاسع في حسن الصياغة ومراعاة الغرض ٠ قال البحترى في رثاء المتوكل :

فأين الحجاب الصعب لحيث تمنعت
بهيبتهـا أبـــوابه ومقـــاصره

وأين عميـــد الناس في كل نوبة
تنوب وناهى الدهـــر فيهم وآمره

وقال أبو العتاهية في رثاء سعيد بن وهب :

مات والله ســـعيد بن وهب
رحم الله ســـعيد بن وهب
يا أبا عثمـــان أبكيت عينى
يا أبا عثمـان أوجعت قلبى

ولعلك تدرك البون الشاسع والهوة السحيقة والتفاوت الذى لا حد له بين الشاعرين فللاول حظ من البلاغة موفور والثانىلا حظ

---

(١) أنظر اعجاز القرآن للرافعى ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ الطبعة الثالثة ٠

له منها مطلقا . ولهذا علق الفضل بن الربيع على شعر أبى العتاهية بقوله :

« وأبو العتاهية بأن يرثى في حياته أولى من سعيد بعد موته » (١)

كما ترى هذا الفارق واضحا بين قول أبى نواس في مدح الامين : ـ

واذا المطى بنا بلغن محمدا
فظهورهن على الرجال حرام
فربننا من خير من وطىء الحصا
فلها علينا حرمة وذمام

وقول على بن الجهم في مدح المتوكل : ـ

الله أكبر والنبى محمد والحق أبلج والخليفة جعفر

وقد سخر مروان بن أبى الجنوب من قول على بن الجهم فقال :

أراد ابن جهم أن يقول قصيدة
يمدح أمير المؤمنين فأذنا
فقلت له لا تعجلن اقامة
فلست على طهر فقال ولا أنا (٢)

واذا كان الاعتبار الاول لبلاغة الكلام هو موافقة الحال والمقام ، فانا قد نجد بين كلامين تفاوتا كبيرا من حيث الصياغة الا أن كلا الكلامين يناسب المقام الذى قيل فيه ، وفي هذه الحالة

---

(١) النقد العربى القديم ص ٦٩ د : داود سلوم مكتبة الاندلس بغداد .
(٢) المرجع السابق ص ١٧٨

لا نستطيع أن نقول : ان هذا أفضل من ذاك حيث أن كلا منهما مطابق للحال والاعتبار المناسب ٠

أنظر مليا الى قول معن بن أوس في الفخر :

لعمـــرك ما أهويت كفى لريبـــة
ولا حملتنى نحو فاحشـــة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصـرى لها
ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى
وأعـلم أنى لم تصبنى مصـــيبة
من الدهر الا قد أصـــابت فتى قبلى

تجد شرف المعنى والدقة في اختيار الالفاظ الى جانب حسن السبك واصابة الغرض والهدف ٠

فاذا قرنته بقول بشار : -

ربـــابة لربـة البيـــت
تصـــب الخل في الزيت
لهـــا عشـــر دجـاجات
وديك حســـن الصـــوت

وجدت فرقا واضحا بين الكلامين في قوة الالفـاظ وفخامتهـا وشرف المعنى ونبالته وحسن النظم وبراعته ٠ومع ذلك لانستطيع أن نقول ان قول « معن » في موضعه أبلغ من قول « بشـــار » في موضعه حيث ان كلا الكلامين قد ناسب الغرض والمقام فكلام معن في الفخر بنفسه ولذا فقد احتاج الى الالفاظ الجزلة والمعانى السامية التى ترفع من قدره وتعلى من مكانته ٠

أما بشار فكلامه لجارية له اسمها « ربابة » كانت تجمع له البيض فجاء على قدر فهمها واهتمامها ٠٠٠ وقد خفى ذلك على بعض أهل المعرفة فعاتب بشارا قائلا : « يا أبا معاذ انك لتجىء

في شعرك بالعظيم والمهجن ، فقال له بشار مثل ماذا ؟ قال انك تقـــول : ـ

اذا ما غضـــبنا غضـــبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو مطرت دما
اذا ما أعـرنا ســـيدا من قبيلة
ذرى منبر صـلى علينـا وســلما

ثم تقـــولّ : ـ

ربـــابة ربـــة البيـــت
تصـــب الخـلّ في الزيت
لهـــا عشـــر دجـاجات
وديك حســـن الصـــوت

فقالّ له بشار : كلّ شيء في موضعه ، ربابة هذه جارية لى وأنا لا آكل البيض من السوق فهى تجمع البيض وتحظـره لى فكان هذا من قولى لها أحب اليها وأحسن عندها من « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » عندك وانما أخاطب كلا بما يفهم »(١)

وعلى الرغم من أن بلاغة الكلام ترتفع وتسموبحسن اختيار الالفاظ وشرف المعانى فليس معنى ذلك أن يظـــل الكاتب أو الشاعر يدقق في ألفاظه ويصفى في معانيه حتى وان كان المقام لا يقتضي ذلك ٠

فأفضل الالفاظ ما خف وسهلّ وكان على قدر معناه لا فاضلا ولا مقصرا ، والحكم في ذلك لاوساط الناس ٠ فلا حكم لهـــؤلاء الذين تهبط أذواقهم لدرجة الاعجاب بالعامية أو بأدنى درجات الكلام العربى ، ولا لهؤلاء الذين لا يقبلون من الكلام الا ما صفى

---

(١) النقد العربى القديم ص ١٨٠

كل التصفية ودقق فيه كل التدقيق وهذب غاية التهذيب ، وانما الحكم لهؤلاء الذين يميزون بين الجيد والردىء ومن يكونون وسطا بين الفريقين السابقين ، والكلام البليغ هو الذى يأتى موافقا لاذواق هؤلاء .

ومن هنا كانت الكلمة التى نقلها الجاحظ واستحسنها في تعريف البلاغة معبرة أدق تعبير وأدلة على مفهوم البلاغة اذ يقول : كفى من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء افهام الناطق ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع » (١) .

وقوله « لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق لفظه معناه ومعناه لفظه فلا يكون لفظه الى سمعك أسبق من معناه الى قلبك » (٢)

وقد ظن بعض الناس أن بلاغة الكلام انما هى في غرابته حتى يتساوى في الجهل به العامة وأكثر الخاصة وهذا جهل منهم لان الفصاحة هى الوضوح والبيان .

يقول أبو هلال العسكرى « وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام اذا لم يقفوا على معناه الا بكد ، ويستفصحونه اذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة ويستحقرون الكلام اذا رأوه سلسا عذبا وسهلا حلوا ، ولم يعلموا أن السهل أمنع جانبا وأعز مطلبا وهو أحسن موقعا وأعذب مستمعا » (٣)

فالكلام البليغ ليس هو الصعب المستغلق ولا المبتذل الدارج وهنا تكمن المعادلة الصعبة وهى وضوح الكلام ومناسبته لكل

---

(١) العمد ج ١ ص ١٦٤
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٥
(٣) الصناعتين ص ٥٨

طبقة ولكل مقام دون الوقوع في الابتذال أى السهل الممتنع كما يقولون ٠

وهذه طريقة من ينصف في الاختيار ولا يعدل به غرض أو هوى لان الذين اختاروا الغامض انما اختاروه لغرض لهم هو اظهار التقدم في معرفته وعجز غيرهم عنه ولم يكن قصدهم جيد الاشعار لشيء يرجع اليها في أنفسها ٠

ويبين هذا : أن الكلام موضوع للابانة عن الاغراض التى في النفوس واذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب الى الدلالة على المراد وأوضح في الابانة عن المطلوب بحيث لا يكون مستكرها على الاذن أو مستنكرا على النفس أو ممتنعا بتعويض معناه عن الابانة ٠ ولقد شبهوا النطق بالخط والخط يحتاج مع الابانة الى رشاقة وصحة ولطف ، كما شبهوه بالتصوير والمصور يحتاج الى لطف يد في تصوير الاشياء والى وضوح الصورة وبيان الهدف، كما أن الكلام يحتاج الى لطف في اللسان والطبع حتى يجوز الفضيلة ويجمع الكمال في نقل المعنى وتصويره » (١)

كما لا يجب التقليل من عنصر العاطفة وأهميته وتيثيره في استمالة النفوس فتحكم للكلام بالبلاغة اذا مس حالا ورغبة تهواها ٠ فهذا عبد الملك بن مروان وكان من أبصر أهل عصره بنقد الشعر يحكم للاخطل بأنه أشعر الشعراء عندما أنشده قصيدته التى يقول فيها : -

نفسي فداء أمير المؤمنين اذا
أبدى النواجذ يوم عارم ذكر

---

(١) أنظر اعجاز القرآن للباقلانى ص ١١٩ تحقيق السيد صقر ٠

الخائض الغمرة الميمون طائره
خليفة الله يستسقى به المطـر
في نبعة من قريش يعصبون بها
ما ان يوازى بأعلى نبتها الشجر
حشد على الحق عبافو الخنا أنف
اذا ألمت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم
وأوسع الناس أحلاما اذا قـدروا
بنى أميـــة نعمـــاكم مجللة
تمت فلامنـــة فيها ولا كدر

فقد روى أن عبد الملك طرب عند سماعه لتلك القصيدة وقال للأخطل :

أأنادى في الناس أنك أشعر العرب (١) وليس الاخطل بالقطع أشعر العرب ولكن كلامه صادف رغبة وهوى فى نفس عبد الملك فحكم بهذا الحكم • وليس معنى ذلك أن قصيدة الأخطل هذه من ردىء الكلام أو خالية من الخصائص البلاغية •• بل هى تدخل في نطاق الشـعر الجيد والخصائص البلاغية فيها ظـاهرة الا أنهـا ليست بأجود الشعر ولا بالتى يحكم بسببها للأخطل بأنه أشعر العـرب •• وقـد يكون لتقاليـد المجتمع وعاداته وما درج عليـه الشعراء في شعرهم أثر فى تفضيل شعر على غيره ولهذا عيب على عمر بن أبى ربيعة قوله :

قالت لترب لهـــا تحـــدثها
لتفســـدن الطواف في عمـــر

---

(١) الموازنة بين الشعراء ـ زكى مبارك ص ١٣ •

قومى تصـــدى له ليبصرنا
ثم أغمزيه يا أخت في خفـــر
قالت لهـــا غمـــزته فأبى
ثم أسبطرت تشتد في أثرى

قال له كثـــير : أردت أن تشبب بها فشببت بنفسك والله لو وصفت بهذا هرة أهلك كنت قد أســـأت صفتها أهكذا يقال للمرأة ؟ انما توصف المرأة بالخفر وأنها مطلوبة ممنعة هلا قلت كما قال الاحوص :

لقد منعت معروفها أم جعفـــر
وانى الى معروفهـــا لفقـــير
أزور ولـولا أن أرى أم جعفـــر
بأبيـــاتكم مـا زرت حيث أزور
وما كنت زواراً ولكن ذا الهـــوى
اذا لم يزر لابـــد أن ســـيزور

هكذا يكون الشعر وصفة النساء (١) ٠ فقد نظر « كثير » في حكمه الى تقاليد المجتمع وما جرى عليه الشـــعراء في وصـــف النساء ٠ كما عابوا مدح الملوك بما يمدح به العامة ولذا عيب قول الاحوص حين مدح أحد الملوك بقوله :

وأراك تفعـل ما تقول وبعضهم
مذق الحديث يقول مالا يفعـــل

فهذا معنى صـحيح في المدح ولكنهم أجلوا أقدار الملوك أن يمدحوا بما يمدح به العوام لأن صدق الحديث وانجاز الوعد وان

---

(١) انظر النقد العربى القديم ص ١٦٧ ٠

كان مدحا فهو واجب والملوك لا يمدحون بالفروض الواجبة وانما يحسن مدحهم بالنوافل فلو قيل لبعض الملوك أنت لا تخون وأنت تصدق في وعدك وتفى بعهدك كان مدحا وثناء ولكن الملوك دائما يتطلعون الى ما هو أكثر من هذا (١)

فارتفاع شـــأن الكلام في الحسن والقبول لا يخضع لعنصر واحد وانما يحتاج الى عناصر متعددة ليســت كلها على درجة واحدة من الاهمية ٠ أهم تلك العناصر وأساسها كما قلنا موافقته للحال والمقام ٠ وهـــذه العناصر تتجـه في أغلبها الى المخاطبين الذين يختلفون من حيث ثقافتهم وعواطفهم وبيئاتهم ٠٠ ولأجل ذلك كثيرا ما نجـد النقاد يختلفون في نظرتهم الى بلاغة الكلام وخصوصا الشعر ٠

ففى الوقت الذى نرى فيه أحد البلغاء النقاد يحكم لأبيات من الشعر بأنها في القمة نجـــد غيره يحكم عليها بالتواضع بل بما هو أقل من ذلك فهذا أبو عمرو الشيبانى وكان اماما في اللغة والشعر يسمع قول القائل :

لا تحســـبن الموت موت البـــلى
فانمـــا الموت ســـؤال الرجال
كلاهمـــــا مـــوت ولـــكن ذا
أفظـــع من ذاك لـذل الســـؤال

فيستجيد هذا الشعر ويشيد به ويبلغ المدى في ذلك فيكلف رجـلا أن يحضر له دواة وقرطاسـا ويكتبهما ٠٠ وفي الوقت الذى نرى فيه أبا عمرو يفعل ذلك اعجابا بالبيتين نجـد الجاحظ يحط من قدرهما ويزعم أن قائلهما لا يقول شعرا قط ، ويعلل استحسان أبى عمرو لهما بأنه ذهب الى استحســـان المعـانى والمعـانى

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٢٣١ ٠

مطروحة في الطريق يعرفها العربى والعجمى والبدوى والقروى ويقول : ان العبرة في بلاغة الشعر انما هى في تخير اللفظ وجودة السبك « فانما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير » (١) • وفي موقف آخر نجد الجاحظ يحكم لأبيات من شعر أبى نواس بالفضل والجودة فيجىء ضياء الدين بن الاثير فيناقض رأى الجاحظ ويقلل من شأن هذه الأبيات والأبيات هى قول أبى نواس :

تدار علينا الراح في عسجدية
حبتها بأنواع التصاوير فارس
قراراتها كسرى وفي جنباتها
مها تدريها بالقسي الفوارس
فللراح ما زرت عليه جيوبها
وللماء مادارت عليه القلانس (٢)

فقد حكى عن الجاحظ قوله « مازال الشعراء يتناقلون المعنى قديما وحديثا الا هذا المعنى فان أبانواس قد انفرد بابتداعه وأنه لا يعرف شعرا يفضل هذه الأبيات ، أما ابن الأثير فانه يتهم الجاحظ بالتجاوز والاكثار ، وبدون هذا يباع الحمار كما يقول ، ويرى أن هذا المعنى لا يستحق هذه الاشادة لأن أبا نواس رأى كأسا من الذهب ذات تصاوير فحكاها في شعره وهو معنى من المعانى المشاهدة لا يستحق ما قيل فيه (٣) » فقد

---

(١) انظر الحيوان ج ٣ ـ ٥٥٧ دار العراق بيروت •
(٢) الراح ـ الخمر ، عسجدية ـ نسبة الى العسجد وهو الذهب ، تدريها ـ أدرى الصيد ختله وتحين غفلته ، الجيب ـ ـ طوق القميص ، القلانس ـ لباس الرأس •
(٣) انظر المثل السائر ج ٢ ص ١٣ ، ١٤ •

صـــغرت قيمة هـذا الشعر في نظر ابن الاثير لانه حـــكاية حال مشاهدة بالبصر مع أنه عظم في نظر الجاحظ لذلك .

وقد أعجب كثير من النقاد بتشبيهات ابن المعتز وفضلوه على غيره من الشـعراء دون النظر الى الظروف التى تحيط بكل شاعر ، وقد دفع ذلك أحد أنصـار ابن الرومى أن يسـأله . لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز ؟ فقال له ابن الرومى أنشـدنى بعض تشـبيهاته التى استعجزتنى عن مثلها فأنشـده قوله في الهـلال :

انظر اليه كزورق من فضـــة
قـد أثقلته حمـــولة من عنبر

فصاح ابن الرومى : واغوثاه ! لا يكلف الله نفسا الا وسعها . ذاك انما يصف ماعون بيته لانه ابن خليفة وأنا أى شيء أصف ، ولكن انظر اذا وصفت أين يقع وصفى من الناس فهل لاحد مثل قولى في صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبـــازا مررت به
يدحـــو الرقاقة مثـل اللمح البصر
ما بين رؤيتهـــا في كفـــه كـــرة
وبين رؤيتهـــا قـــوراء كالقمـــر
الا بمقـــدار ما تنـــداح دائـــرة
في لجـــة المـاء يلقى فيـه بالحجر

وبهذا استطاع ابن الرومى أن يثبت للرجل خطأه في تقديم ابن المعتز عليه ..... فليس لاحـد أن يقـدم شاعرا على آخر الا بعد أن ينظر في الظروف والاحاسيس والمشـــاعر والعواطف التى تؤثر في كلّ منهما . فالحكم بالتقدم لابن الرومى على ابن المعتز أو لابن المعتز على ابن الرومى في هذا المقام ـ حكم يجانب

الصواب لاختلاف ظروف الشاعرين واختلاف المعنى الذى تناوله كل منهمـــا (١) ٠

ويجب أن يكون معلوما أننا حين نترك للناقد الحرية في الحكم للكلام أو عليه انما يكون ذلك اذا توافرت في هذا الكلام الاصول الاساسية التى يجب أن تراعى في الـكلام البليغ ، أما اذا أهمل أحد هذه لاصول فاننا لا نستطيع أن نحكم له بالبلاغة وان وافق هوى الكثير ممن يدعون العلم والمعـــرفة وذلك كالشـــعر الذى يطلقون عليه الآن اسم الشـــعر الحر والذى تختلط فيه العامية بالفصحى ويلقى للاسف رواجا كثيرا في بعض الاوسـاط الادبية أو المدعية ذلك ٠

ويطيب لى قبل أن أترك هذا المقام أن أنبه الى أن البليغ الناقد لا يقرب من الوصـــول الى الغاية في فن البـلاغة (٢) ولا يصلح للحكم على الكلام أوله ولا يقبل قوله في ذلك الا اذا توفر له شرطان :

الشرط الاول : أن يكون على علم ودراية بكل علوم اللغـــة كالنحو والتصريف وأصـول اللغة ٠ فبالاول يعرف كيفية نظم التراكيب على وجهها الصحيح ليسلم الكلام من الخلل والتقيد ، وبالثانى يســـتطيع الوقوف على ما خالف القياس من الالفـاظ فيبتعد عنه ، وبالثالث يستطيع الوقوف على المتداول المستعمل من الالفاظ ، والغريب الوحشي والمستكره المعيب منها ٠٠ كمـــا يحتاج الى معرفة أمثال العـرب والاطلاع عـــلى كلام المتقـدمين من المنظوم والمنثور ليعرف أغراضهم ومقاصـدهم وطرائقهم في

---

(١) انظر الموازنة بين الشعراء ص ٢٢ زكى مبارك ٠
(٢) انما قلت لا يقرب من الوصول الى الغاية لان الوصـول الى الغاية في فن البلاغة أمر فوق طاقة البشر ٠

التعبير كما يحتاج الى حفظ القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فالقرآن مجمع الفصاحة وميدان البلاغة وموطن الاعجاز ، وبحفظه يستطيع الوقوف على أجمل الالفاظ وأشرف المعانى وفي أحاديث الرسول الكثير مما يحتاجه البليغ لاستشهاداته وأحكامه وتزين كلامه ٠

وعلى الجملة فطالب البلاغة يحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون حتى انه ليحتاج الى ما تقوله النادبة بين النساء والماشطة عند جلوة العروس ، والمنادية على السلعة في السوق ، وغناء الفلاح والفعلة أثناء قيامهم بالعمل ٠ فقد تصدر عن هؤلاء بعض الحكم العجيبة أو التشبيهات الطريفة أو الالفاظ النادرة فيستفيدها ، والحكمة ضالة المؤمن يبحث عنها ويأخذها أنى وجدها وقد يجدها من غير أهلها ٠ « ذكر أن الشيخ أبا محمد عبد الله أحمد بن أحمد المعروف بابن الخشاب ـ وقد كان اماما في علم العربية وغيره ـ كان كثيرا ما يغشي حلق القصاص والمشعبذين ، فاذا أتاه طلبة العلم لا يجدونه في أكثر أوقاته الا هناك ، فليم على ذلك وقيل له : أنت امام الناس في العلم وما الذى يبعثك على الوقوف بهذه المواقف الرذيلة ؟ فقال : لو علمتم ما أعلم لما لمتم ولطالما استفدت من هؤلاء الجهال فوائد كثيرة تجرى في ضمن هذيانهم معان غريبة ولو أردت أنا وغيرى أن نأتى بمثلها لما استطعنا ذلك (١)

الشرط الثانى : أن يتجرد من الميل والهوى في أثناء حكمه على الكلام لانه في تلك الحالة يمارس نوعا من أنواع القضاء وشرط القاضي أن يكون عادلا فاذا سيطرت عليه فكرة خاصة أو هوى

---

(١) المثل السائر ج ١ ص ٩ ٠

معين صار حكمه طعمة للظنون يستوى في ذلك التعصب للجنس أو المذهب أو الهوى والغرض فالحب يعمى عن المساوىء والبغض يعمى عن المحاسن • روى أن اسحاق الموصلى أنشد الاصمعى قوله :

هـل الى نظـرة اليـك سـبيل
فيروى الصـدى ويشـفى الغليل
ان ما قـل منـك يكثر عنـدى
وكثـير ممن تحب القليـل

فقال له الاصمعى لمن تنشدى فقال : لبعض الاعراب فقال : والله هذا هو الديباج الخسروانى • قال اسحاق : انهما لليلتهما فقـال الاصمعى : لا جـرم والله أن أثر الصنـعة والتكلف بين عليهما (١) » أرأيت كيف أشـاد الاصمعى بالبيتين حين أخبر بأنهما لشاعر من القدامى « وقد كان يتعصب للقديم من الشعر » فلما علم أنهما لشاعر محدث قلل من شأنهما •

ولاجل ذلك كان أمرا ضروريا أن يتجـرد البليغ النـاقد من الاهواء والاغراض بحيث لا يحكم الا ذوقه السـليم والمقاييس البلاغية المتفق عليها بين علماء هـذا الفن • ولأن توفر الشروط على وجهها الاكمل صعب قال القاضي أبو بكر الباقلانى : ان نقد الكلام صعب ، وتمييزه شديد ، والوقوع على اختلاف فنـونه متعذر (٢) » وقال أبو الطيب المتنبى :

وكـم من عائب قـولا صـحيحا
وآفتـه من الفهـم السـقيم

---

(١) أنظر الاغانى جـ ٥ ص ٧١ مطبعة التقدم الطبعة الاولى
(٢) اعجاز القرآن ص ٣٠٠ الطبعة الثالثة تحقيق سيد صقر

ولـــكن تأخـــــذ الآذان منـــــه
عـــلى قـــدر القـــرائح والعـــلوم

أرجو من الله أن يجنبنا آفة الفهم السقيم انه نعم المولى ونعم النصير ،

د / عبد الحميد مصطفى ابراهيم
مدرس بقســـم البلاغة والنقد
جامعة الازهر